بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال التأصيل المعرفي

(محمد الحسن بريمة إبراهيم)

يتأسس أي مجتمع إنساني متحيز في الزمان والمكان على ثلاثة نظم ضرورية، هي: النظام المعرفي، النظام العقدي والنظام المجتمعي التطبيقي (تربوي، اجتماعي، اقتصادي، سياسي، ثقافي...إلخ). هذه النظم لابد أن تكون متسقة داخليا وفيما بينها، فالنظام المعرفي يؤسس للرؤية الوجودية الكلية التي تجيب عن أسئلة جوهرية ثلاثة؛ أولها سؤال **ماذا هناك**، أي على ماذا يحتوي هذا الوجود؟ هل هناك خالق وخلق؟ ماهي طبيعة هذا الخالق، وماهي طبيعة خلقه؟ ماهي العلاقة بين الخالق والخلق؟ أو، ربما ليس هناك خالق، فمن أين جاء هذا الكون إذن، ومم يتكون؟ من هو الإنسان؟ من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب بعد الموت؟ ما هي علاقته بهذا الكون؟ من أين يستمد قيمه ومعاييره التي بها يفعل ويتفاعل؟ السؤال الثاني في النظام المعرفي يتعلق **بماذا نعلم**، أي ما هو العلم الذي يمكن تحصيله عن الوجود الذي حددته الرؤية الوجودية الكلية؟ السؤال الثالث بالطبع يتعلق **بكيف نعلم**، وهو السؤال المنهجي، أي كيف نتحصل على العلم عن الوجود الذي تم اعتماده كرؤية للعالم.

كل إنسان، وكل مجتمع يستبطن بالضرورة إجابات من نوع ما عن الأسئلة أعلاه التي يطرحها النظام المعرفي، سواء كان هذا الاستبطان عن وعي، أو دون وعي، لأن الحياة تستحيل دون ذلك. لكل فرد ولكل مجتمع أصوله التي تمده بإجابات لهذه الأسئلة التي يطرحها النظام المعرفي، فقد تكون تلك الأصول عبارة عن حكايات تراثية أسطورية تتوارث عبر الأجيال، لا يسأل أحد عن مدى الحق الذي فيها، بل يتم تلقيها بالقبول والإذعان، ويتأسس عليها النظام العقدي، أي ما يؤمن به الأفراد والمجتمع، وعلى النظامين معا ينشأ ويستمر نظام المجتمع في الزمان والمكان. وقد تكون الأصول التي يأوي الفرد والمجتمع إلى إجاباتها عن تلكم الأسئلة الوجودية هي أديان مهيمنة أسلم الناس لها القياد، طوعا، أو كرها. وقد تكون الأصول فلسفات وجودية، مادية أو غير مادية، تدعي العلمية، وتنتهج مناهج البحث العلمي المنظم للوصول إلى إجابات يتوفر لها قدر من الصدقية العلمية بمقدار اقتراب، أو ابتعاد تلك الفلسفات الوجودية عن الحق الذي يتأسس عليه الوجود. وقد تكون الأصول هي كتاب يدعي أصحابه أنه وحي يوحى من الموجود الأعظم، خالق السماوات والأرض وما بينهما.

الرؤية الوجودية الكلية التي يمد النظام المعرفي بها المجتمع، أيا كان مقدار الحق الذي فيها، يبني عليها الأفراد والمجتمع نظامهم العقدي الذي يحدد ما يؤمن به وما لا يؤمن به الفرد والمجتمع، وما هو حلال وما هو حرام...إلخ. ومن هذين النظامين ينشأ الواقع المجتمعي الذي يتدافع فيه الناس فعلا وتفاعلا، ويتم عمران الأرض جلبا للمصالح ودفعا للمفاسد، ويتحقق الصلاح والفلاح للناس، واستدامة ذلك بمقدار الحق الذي تتأسس عليه هذه النظم الكلية الثلاثة. هكذا يتبين الدور الحاسم للنظام المعرفي، ولأصوله التي يتأسس عليها في قيام المجتمعات، وبقائها وصلاحها واستدامة هذا البقاء والصلاح.

إن قضية التأصيل المعرفي الإسلامي (إسلام المعرفة) تأخذ مشروعيتها مما جاء في التحليل أعلاه، وهي بهذا الاعتبار قضية موضوعية لا ذاتية، وقضية عالمية لا محلية، ولذلك لا غرو أن يبدأ أول أمرها في الولايات

المتحدة الأمريكية في سبعينات القرن الماضي، ثم تتسع دائرتها لتعم كل الكرة الأرضية، وينحشد لها رهط من العلماء من كل أنحاء العالم، وفي مختلف التخصصات، منهم المسلمون ومنهم غير ذلك، ويتبارك الجهد مثمرا قدرا معتبرا من المعرفة من حيث الكم ومن حيث النوع. ولما كان السودان يقع في دائرة الدول التي يدين غالب أهلها بالإسلام فإن من المنطقي أن يكون له نصيب من هذا السعي المعرفي المبارك، وما كان له أن يتخلف عن ركبه.

إن الإسلام من حيث هو دين محفوظ مثاله في نصوص الوحي الكريم، ومن حيث هو واقع اجتماعي يقام فيه ذلك المثال الديني، بشروط الزمان والمكان، يتأسس على ذات المحاور الثلاثة المذكورة آنفا، إلا إنه يختلف عن غيره من النظم في أصوله المعرفية التي يستوعب ويتجاوز الحق الذي فيها ما عداها من النظم المعرفية السائدة في العالم. إن النظام المعرفي الإسلامي تقوم أصوله المعرفية على الوحي والكون والتكامل المعرفي بينهما؛ وإنتاج العلم الذي به يشاد بنيان الدين، إيمانا بالله تعالى في القلوب، وعملا صالحا به يتحقق عمران الأرض، هو جوهر هذا النظام. لقد ورد في القرآن الكريم نهي المسلم عن أن يقْفُ ما ليس له به علم: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)، وأن الإيمان بالله تعالى إنما يتأسس على العلم: (فاعلم أنه لا إله إلا الله)، من خلال تدبر القرآن الكريم: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)؛ (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)، ومن خلال التفكر في خلق السماوات والأرض: (أفي الله شك فاطر السماوات والأرض)؛ (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)؛ (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)؛ (فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب)؛ (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). أما عمران الأرض حيث يقام الدين شكرا لله تعالى على نعمه على الإنسان، ظاهرة وباطنة، فإن أصول علوم العمران، طبيعية واجتماعية، بينة في الوحي الكريم، وفي الكون المسخر للإنسان، (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)؛ (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه). كما إن الكرم الإلهي قد زود الإنسان بالأدوات المعرفية الضرورية لتحصيل تلك العلوم: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)، وامتدح علماء العلوم الكونية الذين يهتدون بها إلى ربهم فيخشونه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(فاطر)؛ ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ١٩ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ٢١ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ٢٢ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ٢٣ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ٢٤ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ٢٥ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ٢٧ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ٣٠﴾ [الروم: 17-30].

لقد كان النظام المعرفي الإسلامي فعالا ومنتجا لكل أنواع العلوم، ومتفاعلا مع كل النظم المعرفية العالمية المعروفة في العهد الأول للإسلام، مما جعل الحضارة الإسلامية الأولى هي الأرقى عبر التاريخ البشري. لقد كان من ثمار تلك الحضارة على المستوى المعرفي المنهج العلمي التجريبي الذي شهد علماء تاريخ العلوم في الغرب أنه أعظم هدية قدمتها الحضارة الإسلامية للبشرية، وأن الفضل يعود إلى تلك الهدية في نهضة أوربا العلمية. ولما كانت الأصول المعرفية لذلك المنهج العلمي التجريبي هي هي اليوم كما كانت بالأمس، لم يمسسها تبديل ولا تغيير، لم يعد من عذر للمسلمين اليوم في ألا يستأنفوا المسيرة العلمية التي بدأها الأولون مبتدئين من حيث انتهت المسيرة العلمية للبشرية اليوم، ومستفيدين من كل ثمرة طيبة من ثمارها. إن مما تفيده بالتبع نظرية النُظُم التي تنضوي تحتها جميع العلوم الطبيعية اليوم، وتسارع نحوها العلوم الاجتماعية، والتي تؤكد أن جميع الكائنات هي عبارة عن نظم وفي ذات الوقت جزء من نظم هي أكبر منها، وأن هذه النظم تبدأ بالمستوى الفيزيائي الذي يكون قاعدة للمستوى الكيميائي، الذي بدوره يكون قاعدة للمستوى الحيوي، والأخير يكون قاعدة للمستوى النفسي لينتهي هو كذلك بالمستوى الاجتماعي، تفيد منطقيا أن المجتمع الذي يتأسس نظاماه المعرفي والعقدي على الإسلام يستحيل أن يعمل نظامه الاجتماعي في الواقع العملي دون اضطراب وتناقض، وأن يحقق الوظائف المنوطة به بطريقة فعالة إلا من داخل الإسلام. إذن لابد إن كان لمجتمع مسلم أن ينهض ويتقدم أن يقوم نظامه المعرفي بمده بالتصورات الكلية والجزئية التي تمكنه من النهوض، بشروط الزمان والمكان، وإلا فهو الإخلاد إلى الأرض، ولن تسعفه جهود الآخرين ولو كثرت. إذن قضية التأصيل المعرفي قضية مصيرية للمسلمين، وفرض عين على علماء الأمة في هذا الزمان أيا كانت تخصصاتهم العلمية.

تم والحمد لله رب العالمين